الإسلام لا يقر كلمة « أنا » . .

للأستاذ محمد لبيب البوهى

تنهض وحدة الشعوب الإسلامية على أساس متين من روح الإسلام فهذه المنطقة هى منزل الوحى وموطن الرسالات ومن خصائص الإسلام أنه يصهر بنيه فى بوتقة الوحدة و يجعل الفرد ينظر إلى الكل نظرة شاملة فلا يقف عند حدود سعادته الشخصية فهو حين يصل أسبابه بأسباب السماء تتسع آفاق حياته ويصبح معنى القومية عنده أكثر من حدود الأرض والمنافع اليومية ونحن نرى عجائب لا يمكن أن نراها فى أى أمة أخرى تصل إلى حد المعجزات التى تفوق الطاقة البشريه حين نرى إثنين يتلاقيان أحدهما أنصارى فى المدينة والآخر مهاجر من مكة تجمع بينهما روح المؤاخاه حتى يقاسمه داره وماله ومتاعه .

فالإسلام يقول :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

بل إنه ليبدأ فى رسم الطريق الأصلى للوحدة القائمة على المؤاخاه فيجعل السعادة الأخروية قائمة على تحقيق هذه الوحدة على الأرض بمعناها السليم .

ولما كانت الحياة الإجتماعية هى التى تمثل بداية تكوين القومية وكان جار الإنسان أقرب أفراد المجتمع إليه فإذا حسنت الصلة بالجار بدأت الأخلاق الإجتماعية اللازمة للبناء القومى السليم تتكون على أساس متين .

لذلك يوصى الإسلام بنيه بالجار .

« لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

* * *

فالإسلام ينهض أولا وقبل كل شئ على المعنى الروحى الذى لا يعرف حدود

المكان . لأنه حركة داخلية فى أعماق النفس . وبذلك تتكون روح الجماعة التى ينبثق منها الشعور الإجتماعى الذى يبدأ من الفرد إلى الجار إلى المحيط الخاص فالمحيط العام حتى تصبح روحاً شاملة لا تفرق بين أمة وأمة ولا بين شعب وشعب . . ولا توجد على الأرض قومية نشأت على العقيدة غير القومية الإسلامية ولذلك كتب لها الخلود بينما دالت وانهارت قوميات على مدار التاريخ .

إن القوميات التى تتكون على مصالح خاصه هى قوميات زائلة أو مفتعله ولكن القوميات التى تتخذ لها رباطاروحيا يشد بنيها جميعاً يتولد منه نوع من الولاء الأسمى لشىء أكبر من المكان والزمان إنه الولاء لروح القوميه فينشأ الفرد وهو طفل ويتعرف إلى الناس الذين من حوله بروح من العاطفية بل أنه ليتعرف أيضاً إلى الأشياء والجمادات ويعمل على أن تكون بينه وبينها لونا من ألوان العاطفه الصامته .

وقد كان النبى محمد يطلق أسماء ذات معانى بهيجه على أدواته التى يستعملها فى حياته العامه كأنه يكرم روحها .

وقد تأيدت نظرية المشاركة الوجدانية لدى علماء النفس فى العصور الحديثة فيرى « مكدوجل » أن العاطفة التى تتمثل فى كل الأشياء المحيطة بالإنسان

* * *

تشده إليها فهو يرى نفسه ذكرياته متصلة بها وكما يحس بعاطفة الأبوة نحو أبيه وعاطفة الأخوة نحو أخيه كذلك يشعر بنوع من الولاء للجدول الذى روى ظمأه والحديقة التى أبهجت نفسه والبيت الذى آواه . والوطن الذى نشر عليه ظل حمايته .

إن هذه التربية الإسلامية التى هى أساس القوميه العربية هى التى تقيم علاقة وثيقة فوق العلاقة المادية بين الأنسان وهو طفل وبين كل ماحوله من الناس والجمادات وعلى ذلك ينشأ وتتكون شخصية ويبدأ يكتب تاريخ حياته .

وهذه الروح الإسلامية تأخذ طابعها العام حتى فى الحروب فبينما نرى العدو

يدمر كل ما يمتلكه عدوه إذا بالقواد العرب يوصون الجند حين يدخلون بلداً ألا يقتلوا بريئا ولا يحرقوا شجرة ويقول لهم عمر بن الخطاب إنكم سترون أقواما قد إعتكفوا للعبادة فدعوهم فى عبادتهم . . . والفتح الإسلامى هو طراز فريد عجيب فى الغزو الروحى إنه إفساح المجال لمعانى من عالم الروح كى تنير الطريق للآخرين فهى ليست فتوحات قائمة على الإستغلال والرغبة فى إذلال الآخرين .

بل العمل لخير الأخرين هو محاولة لتكوين مجتمع إنسانى قائم على المثاليات التى تنبع من عالم الروح لتخليص المجتمع الإنسانى من شروره ومتاعبه .

ومن خصائص الإسلام أنه يلغى من حياة الإنسان المعنى الفردى . . . فلا يقف الإنسان فوق قمة غروره ليقول أنا .

إن هذه الأنانية كبيرة الكبائر فالحياة التى يحياها الفرد حين يعتزل كل شىء تصبح حياة سلبية ولا يمكن أن تسمى هذه حرية ابدا . حرية الفرد فى الأنعزال عن قضايا المجتمع ومشاكله وهو أمر مناف لطبيعة الحياة .

فالفرد ينشأ متعلقا بالعقائد والتقاليد والعادات التى تسود مجتمعه بل أنه لن يستطيع أن يدافع عن كيانه ما لم يكن مسلحا بكل هذا ويرى أنه جزء لا يتجزأ من المجتمع الكبير فكل ضرر يصاب به المجتمع سيعود عليه منه نصيب كبير .

ولذلك فإن الإسلام لا يفرض على بنيه قواعد إجبارية يلزمهم باعتناقها قسرا بل هو منهج تربوى يبدأ كما قلنا من الجار ثم يظل الأمتداد الإجتماعى حتى يشمل النادى . . والقرية . . والبلد والعمل ويبدأ الإنسان فى ممارسة سلسلة من ألوان الولاء بصورة تلقائية .

والجوهر الروحى يجعل كل هذا محببا وسهلا مادام قائما على منهج تربوى

إنك لا تستطيع أن تجمع خليطا من الناس لتقول لهم كونوا مجتمعا . لن تجد فى المدينة خليطا من أجناس شتى تجمعهم المنافسات المادية التى قد تؤدى إلى الحزازات

ولذلك فإن القوة الروحية وهى شعار بلادنا هى التى تحد من هذه المطامع .

* * *

ومن خصائص التربية و الثقافة أنها توحدوجهات النظر فتزيدمن عمق الخصائص القوميةفى أصحابها . وتلتقى الفلسفةمع هذا المعنى حين نرى كل الفلاسفة تقريبا يحتفلون بالمعنى الإنسانى الشامل و يدعون إليه .

ولكن الإنسان لن يحسن الولاء العام للانسانية ما لم يمارس فى نظام تربوى الولاء فى محيطه الخاص والقرآن وهو دستور الإسلام لم ينزل على الناس بين يوم وليله . إنما نزل القرآن فى ثلاثة عشرة عاما ليظل الناس على صلة بالسماء خلال هذه الأعوام ليتعلموا و يمارسوا تنفيذ ما يتعلمونه بطريقة تطبيقية لتكوين مجتمع إنسانى .

كان القرآن يدعو إلى عادات ونظم خاصة وهذه العادات والنظم لا يعتنقها الإنسان بمجرد أن يستمع إليها و إنما هو يريد السنوات الطويله ليتعودها و يألفها و يهتدى بهديها حين تمتزج بنفسه و ينفعل بها وتصبح جزءا من وجوده و ينطبع فى ذهنه أثر من الثقافة التى تثبت هذه العادات و النظم .

ومن معانى التوحيد أن يشعر الإنسان بوحدة الإنسانية وأنه جزء لا ينفصل ابدا عن المجتمع السليم الذى يجب أن يكون مواطنا صالحا فى تكوينه .

* * *

ولذلك فإن الإسلام لا يدعو إلى العصبية أو القبلية أو الشعوبية أو الأقليمية فكما أن الولاء للأسرة اليوم لا يتناقض مع ولائنا للوطن فيجب كذلك أن نوفق بين الولاء للوطن و بين الولاء للإنسانية جمعاء .

وهذا الولاء الإنسانى الكامل هو محور الروح الإسلامية دون أن تذوب أو تتلاشى بل تظل وحدة متماسكة

و إذ كانت قوميات كثيرة تحارب الإنسانية وتقف فى طريقها وأن قوميات أخرى ترى استحالة التوفيق بين الولاء للوطن والولاء للانسانية فذلك كله راجع إلى أنه

ليست قوميات قائمة على المعانى الروحية التى تتميز بها قوميتنا ذات المنهج التربوى لتربية الفرد أن تعاليمه تزرع فى نفسه كل الصفات اللازمة لنمو المعنى الإنسانى فى ضميره ثم يندفع هذا المواطن بهذه الخصائص إلى تكوين أسرة يرعاها بنفس النظم والمعانى والعادات التى تعلمها ومن هذه الأسر يتكون المجتمع على أساس من التعاون القائم على أداء الحقوق واحترامها حتى أن الناس لايتفاضلون فى المجتمع العربى بالمال والمناصب أو ما يحققونه من ألوان الجاه وإنما يتفاضلون بمقدار حرصهم على أداء هذه الحقوق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والتقوى هى أن يتقى الإنسان الإجحاف والظلم وكل ما يلوث إنسانيته)

* * *

يخطىء كل من يظن أننا نعنى بالمعانى الروحية أن قومتنا قائمة على لون من الإنعزالية عن الحياة والكفاح بل أن هذه الروح هى التى تنمى فى نفس المسلم روح العمل الشامل والكفاح من أجل المجموع

* * *

والدول التى تتسلح بالقوى المعنوية يكتب لها التفوق فى ميادين نشاطها كما نرى قوميات أخرى رغم قواها المادية تنهزم فى الحروب لأنه كان ينقصها الجوهر الروحى

وحين هزمت فرنسا فى الحرب العالمية الثانية قال زعماؤها

إن فرنسا لم تنهزم لأنها كانت أقل عدة وعتاداً عن غيرها لقد كانت تمتلك أساطيل البر والبحر والجو ولكنها هزمت لأنه كان ينقصها الإيمان أن المدفع لا ينصر نفسه والقذيفة لاتحطم عدوها وإنما إيمان الرجل الذى يحرك المدفع والقذيفة هو الذى يسرع به إلى النصر

الإيمان الذى يبحث عنه الكثيرون وإذا وجدوا شعاعاً ضئيلا عكفوا عليه ينفخون فيه هذا الأيمان هو لب الروح الإسلامية وهذا . الإيمان لايتحقق إلا بالعمل للجماعة الإنسانية الإسلام لايقر كلمة . . . أنا . . وهكذا ترشدنا تعاليمنا . . .